هذه بدايتي في طلب العلم فإيّاك وإيّاها ! !

كنتُ محبًا للقراءة في صغري، مقبلًا عليها، ولربما قرأتُ آلاف الروايات والمجلّات والكتب قبل أنْ أتمّ العشرين، فلمّا سلكت طريق طلب العلم لم أجد مشقّة في الإقبال على قراءة الكتب الشرعيّة، لكن الصعوبة كانت في الاختيار بينها، والتدرّج فيها، وفهم وضبط مسائلها، إذ لا مُعِين وقتها ولا مُرشِد، وكان أوّل كتاب وقع في يدي هو «منهاج المسلم» فراقت لي فكرته القائمة على الترجيح بين المذاهب، قبل أنْ يتبيّن لي أنّ الكتب الفقهيّة حتى المذهبية منها قائمة على الترجيح، سواء باعتبار أصلها، أو باعتبار ما قد يتفرَّع منها، لكن الأمر يختلف باختلاف آلة وقدرة الفهم والاستنباط عند الفقيه، ومعرفته بالأدلّة، وموقفه مِن اعتبارها والاحتجاج بها، واطّلاعه على أقوال أهلم العلم فيها، ونقضه لكل ما يخالف قوله وأدلته.

وانتقلت بعد ذلك إلى المجلد الأول مِن «فقه السنة»، فقرأته عدة مرّات، وحفظت مسائله، وهنا وقعت أسيرًا لاختيارات الشيخ سيد رحمه الله ، فلا معرفة لدي بأصول فهم الأدلة، ولا أعرف مظانها، ولا اطّلاع لي على أقوال العلماء الآخرين وأدلّتهم، والأمر نفسه تكرّر مع استدراكات الألباني رحمه الله في «تمام المنة»، ومع اختياراته في كتاب «صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم » أيضًا، ففاقد الآلة يقعُ في تقليد فهم مَن يقرأ له غالبًا، ويتأثّر بعرضه وسرده للأدلّة، ويحسب أنّ هذا منه متابعة للدليل، ثم قرأت كتابا في أصول الفقه يقارن بين أدلة الحنفية الإجمالية وأدلة الجمهور وتطبيقاتهم لهذه الأدلة مع أني لم أكن أعلم وقتها الفرق بين منهج الفقهاء وبين المنهج المتكلمين في أصول الفقه!! وأقبلت بعده على «إعلام الموقعين» قبل أن أقرأ متن «الورقات»! وكنت أعيد قراءة المسألة أكثر مِن مرّة

لأفهمها دون أنْ أصل لمرادي، وهذا ما وجدته أيضًا مع قدر أكبر مِن الصعوبة عندما ذهبت أطالعُ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وفي هذا الوقت قرأت عددًا كبيرًا مِن متون الحديث، وعزمت على حفظ «رياض الصالحين» لكني توقفت لكثرة أحاديثه، وغياب التدرّج في الحفظ، ثمّ توجّهت إلى «تفسير ابن كثير»، ولم أتجاوز إلّا صفحات يسيرة منه، فقد تسلّل الفتور إلى قلبي، ووجدت عناء في ضبط بعض كلامه.

وهكذا بقيت اتنقّل مِن كتاب إلى كتاب، ومِن علم إلى علم، دون أنْ أضبط متنًا مختصرًا واحدًا في علم مِن العلوم، أو أعرف مبادئ علم واحد منها، والذي زاد الطين بلَّة انشغال بعضُ أهل العلم وقتها في ردود وخصومات وقعت بينهم، فوجدنا أنفسنا نتابعها، ونطالع ما ينشر ويُطبَع فيها، ظنًا منّا أنّ هذا مِن نصرة المنهج والدعوة، وبالرغم مِن اهتمامي بمتابعة دروس أهل العلم واللقاء بهم إلّا أنّنا كنا نعاني مِن قلّة مجالس العلم، وعدم استمرارها، وصعوبة بعض المتون التي تُدرَّس، وكونها لا تناسب المبتدئين، وطول مدّة تدريس الكتاب الواحد، وهكذا مرّت السنين لأجد نفسي قرأتُ كتبًا لم يقرأها أكثر أقراني، وأعرف مسائل وأدلّة قد لا يعلمها بعض كبار الطلبة، لكني كنت أجهل الأصول التي اعتمد عليها العلماء لاستنباط أحكام تلك المسائل، وأعجز عن فهم كثير مِن مصطلحاتهم وكلامهم، فقد كنت زاهدًا في علوم الآلة عموما، ولا علم لي بصنعة الحدود -التعريفات- ومراتبها، إذْ شغلي الشاغل وقتها هو تحصيل الأدلّة وحفظها، حتى أدركت أنْ لا فائدة مِن طلب العلم بهذه الطريقة، فعزمت على تصحيح المسار، وطرْق باب التأصيل العلمي.

وقرّرت أنْ أجدّد النيّة في طلب العلم، وأحيي الهمّة، وألتزم نصيحة الأئمّة، فعدت لأثني الركب عند أهل العلم -وما زلت-، وأقبلت على دراسة المتون المعتبرة، والتدرّج

فيها، والعناية بشروحها، وضبطها وإتقانها، ثم تدريس مسائلها بعد تحصيل قدر مِن التأهيل، فالعلم لا يُصبِح ملكة إلّا بكثرة مذاكرته وبثّه.

وقد اجتمعَتْ لديّ جملة مِن الفوائد في الطلب والتأصيل العلمي؛ حصّلْتُها مِن متابعة ومجالسة عشرات العلماء وطلبة العلم، ومِن سنوات قضيتها في صفّ الكتب الشرعيّة، والبحث العلمي، والدعوة التقنيّة، ومطالعة أقوال ووصايا العلماء في كتب طرق وآداب طلب العلم، والنظر في المناهج المخصّصة لإعداد طلبة العلم، فرأيت نشرها وبيانها، وتعريف طلبة العلم بأقوال العلماء في هذا الباب، ودعوتهم لالتزامها، ولست هنا أبحث عن تصدّر يعلمُ الله، أو أطلب شهرة، أو ثناء لا أستحقه؛ فأنا أَعلَم الناس بضعفي وجهلي وتقصيري، وإنّما أتحدّث عن أهمية التأصيل العلمي حرصًا على إخوة لي حديثي عهد بطلب العلم، ولا أحبّ أنْ يُضيعوا مِن أوقاتهم ما ضيَّعْته أنا، ولإدراكي حاجة المجتمع لطلبة علم أقوياء مؤصّلين يدعون إلى الله على بصيرة، لذا أدعو إلى التزام الخطط العلميّة المنهجيّة في إعداد الدعاة وطلبة العلم، واجتناب طرق التعليم التي أثبتت فشلها، علمًا بأن تجربتي في أوّل الطلب ليست فريدة مِن نوعها! بل هي تجربة آلاف الطلبة، لكنني اعترفت بفشلي وحاولت الإصلاح، وهناك مَن يُعاند ويزيّن لنفسه وشيوخه الأخطاء، ويأبي التغيير.

وأخيرا فليعلم مشايخي وإخواني جميعا أني لست في خصومة (شخصيّة) مع أحد، وما كنت لأهدر جهد مَن قدّم للإسلام والمسلمين ولو خالفته، لكننا أحوّج ما نكون لتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، والتزام قواعد وأصول وأوصاف علميّة حقيقية في الحكم على طرائق و مناهج ووسائل التعليم، وتقييم طلبة العلم الذين يدرسون في مؤسساتنا التعليمية، مِن قبيل: (من رام العلم جملة ذهب عنه جملة)، (هذا المتن للمتقدّمين ولا يُناسب طالب العلم المبتدئ)، (هذه الطريقة في الشرح فيها توسّع يشتت ذهن الطالب

ويطيل مدة الدرس)، (من حُرِمَ الأصول حُرِم الوصول)، (البدء بالمطوّلات قبل المختصرات مخالف للسُلّم التعليمي الذي وضعه العلماء، ومناقض لمبدأ التدرّج في الطلب)...وهكذا، وينبغي بالمقابل عدم الاكتفاء بالأوصاف والأحكام العامة عند الحديث عن مناهج التأصيل العلمي، مثل: (لا يخلو درس من فائدة)، (الاجتماع مع الشيخ، ومجالسة طلاب العلم فيهما خير عظيم)، (هذا كتاب نافع)...ونحوها، ولست أنكر صحّة ما جاء فيها، لكن هذه العبارات لا تصلُح استقلالًا كمعايير علميّة نحكم بها على مجالس التأصيل العلمي، وخطط صناعة طلبة العلم.

ولا يُفهَم من كلامي أني أغلق باب الاجتهاد في اختيار مناهج وطرائق التدريس، فطرق التعليم واسعة، والخلاف فيها معروف، لكني أتحدث عن الأصول والقواعد القطعيّة في التعليم، والتي لا خلاف فيها، ولست كذلك أغضُّ الطرف عن إصلاحات نافعة وقعت في العملية التعلميّة، لكننا نحتاج للمزيد من الجهود والإصلاحات، والتخلّص من بعض الآراء والوصايا الخاطئة والتي تشكّل عائقًا في طريق الإصلاح والتغيير، هذا وأسأل الله العظيم أن يَنْفَع بمشايخنا الكرام جميعًا، وأنْ يسخّرهم لرفع الجهل عن الأمّة، وأن يعينهم على إخراج طلبة علم ودعاة مؤصّلين يدركون ما تمرّ به الأمة مِن أزمات، وعندهم رغبة وهمّة وقدرة على دعوة الناس إلى الحق بحكمة وموعظة حسنة، والرد على المخالف ودفع شبهه بالحجج الدامغة، والبراهين الساطعة.

وكتبه حامدًا ومصليا في ٨-ذي القعدة-١٤٣٨هـ

(أبو هريرة) محمد بن سفيان شعشاعة العلمي الغزّي